مجلة المعجمية - تونس

ع 9-10

1994

مراتب الاتّساع في الدّلالة المعجميّة :

المشترك في العربيّة، مادّة «عين» نموذجا

بقلم : الأزهر الزّنّاد

يعرّف الاشتراك بما يكون في «اللّفظ الواحد الّذي يطلق على موجودات مختلفة بالحدّ والحقيقة إطلاقا متساويا كالعين تطلق على العين الباصرة وينبوع الماء وقرص الشّمس، وهذه مختلفة الحدود والحقائق» (1). ويمكن ترجمة هذا التّعريف إلى تعدّد المداليل لدالّ واحد، وهذا التّعدّد مرتبط بطبيعة المداليل المتّصل بعضها ببعض من جهة المفهوم، وهو ما أشار إليه الغزالي بالحدّ والحقيقة، وله اتّصال كذلك بطبيعة الفكر البشريّ في تصنيفه للأشياء، لأنّ الاشتراك والتّرادف والتّضادّ وغيرها من العلاقات إنّما هي من اصطناع الفكر المدرك للأشياء والمرتّب لها في عالم يصطنعه لنفسه يسيطر من خلاله عليها ويمسك بها.

وإذ يمثّل الاشتراك ظاهرة عامّة في اللّغات الطّبيعيّة وأساسا يكاد يكون ضرورة في اشتغالها كان مجالا هامّا في اهتمامات اللّغويّين قديما وحديثا. فقد خاض فيه العرب من اللّغويّين والمناطقة كثيرا ووصلتنا عن بعضهم إشارات متفرّقة كالخليل بن أحمد وسيبويه والمبرّد وابن جنّي وابن فارس وغيرهم كثير، ووصلتنا عن بعضهم مؤلّفات خصّوا بها هذه الظّاهرة. ولا يكاد يخلو كتاب في علم الدّلالة في اللّسانيّات الحديثة من قسم يخصّصه أصحابه لدرس الاشتراك بأنواعه ووجوه حدوثه وما يتّصل به من قضايا.

ومن أهمّ القضايا الّتي تطرح في درس ظاهرة الاشتراك :

- أنواع المشترك : حيث يجري تقسيمه إلى مشترك معنويّ Polysémie و مشترك

(1) الغزالي: معيار العلم في فنّ المنطق ص 52.

لفظيّ homonymie وبيان الحدود بينهما في القاموس والاستعمال.

- حدوث الاشتراك : يكون ذلك ببيان الأسباب وطرق الحدوث في تاريخ اللّغات، وهي في مجملها تعود إلى الاتّساع عن طريق المجاز وإلى اختلاف اللّهجات الّتي تجري اللّفظ الواحد في معان مختلفة تجتمع في مرحلة الجمع وتأليف القواميس في مدخل معجميّ واحد، وإلى تطوّر الدّلالة نفسها خلال الأحوال اللّغويّة المختلفة.

وقد أجمل ابن السّرّاج بعضا من هذه الظّواهر في قوله :

«... الّذي يوجبه النّظر على واضع كلّ لغة أن يخصّ كلّ معنى بلفظ لأنّ الأسماء إنّما جعلت لتدلّ على المعاني فحقّها أن تختلف كاختلاف المعاني، ومحال أن يصطلح أهل اللّغة على ما يلبس دون ما يوضّح، وهذا ادّعاء من ادّعى أنّه ليس في لغة العرب لفظتان متّفقتان في الحروف إلاّ لمعنى واحد. لكنّه أغفل أنّ الحيّ أو القبيلة ربّما انفرد القوم منهم بلغة ليس سائر العرب عليها، فتوافق اللّفظ في لغة قوم وهم يريدون معنى مع لفظ آخر من لغة قوم آخرين وهم يريدون معنى آخر، ثمّ ربّما اختلطت اللّغات فاستعمل هؤلاء لغة هؤلاء، وهؤلاء لغة هؤلاء. فأصل اللّغة قد وضعت على بيان وإخلاص لكلّ معنى لفظا ينفرد به، إلاّ أنّه دخل اللّبس من حيث لم يُقصّد» (2).

- خصائص المشترك : يكون ذلك بدرس عدد من المسائل أهمّها متى يبدأ الاشتراك أي ماهو العدد الأدنى من المداليل الّتي يجب أن تتوفّر للدّالّ الواحد فيُعتبر من المشترك أو يُقصى منه. فاللّغة في أساسها تقوم على اقتران أحاديّ بين الدّالّ والمدلول، لكنّ المشترك يمثّل كسرا لهذا الأساس بتعدّد المدلولات لدالّ واحد، وهذا يستوجب النّظر في طبيعة تلك المداليل من حيث علاقاتها بعضها ببعض وما تكوّنه من حقول دلاليّة ذاهبة في اتّجاهات متعدّدة متباعدة ومتقاطعة. وهي في تعدّدها وتداخلها تطرح قضيّة مهمّة في صناعة المعجم ودراسة نظامه من حيث تخليص الأصل من الفرع : فأيّها الأصل وأيّها الفرع ؟

كما أنّ هذا التّعدّد في المداليل للدّال الواحد يجرّ تعدّدا في العلاقات الّتي تكون له في المعجم من حيث مرادفاته، فكلمة «عين» ترادف في المعجم العربيّ كلّ الكلمات الّتي

(2) رسالة الاشتقاق ص 21.

تثبتها المعاجم في بيان دلالتها، وفي الصرّف من حيث صيغه فكلمة «عين» وفق ما تفيد من معان لا تقبل كلّ صيغ الجموع مثلا فهي إذا دلّت على الجارحة أو منبع الماء أو الجاسوس جمعت على «عيون» ولكنّها إن جمعت على « أعين» دلّت على الجارحة دون غيرها وإن جمعت على «أعيان» دلّت على الأشراف في قومهم فقط، وهي في صيغة المفرد تحتمل الكثير من المعاني سيأتي درسها في ما يلي من العمل بل إنّها لا تقبل الجمع مطلقا إن دلّت على المال مثلا (3). كما تتعدّد علاقات المشترك في التّركيب من حيث توزيعه ولهذا الأمر صلة وثيقة بالاستعمال حيث تطرح قضيّة أخرى تدور على ما به يمكن للسّامع أن يهتدي إلى المدلول المراد والمعوّل في ذلك على السّياق عموما.

لكنّ مجرّد الإشارة إلى دور السّياق (العلاقات النّسقيّة) لا تكفي لبيان آليّات التّركيب عند المتكلّم ولا آليّات التّأويل عند السّامع. فالمداليل المختلفة المقترنة بالدّالّ الواحد كامنة في اللّغة كمونا بالقوّة ولا تتمايز إلاّ عند حدوث الكلام حيث يترشّح بعضها وينتفي سائرها، وهذا الأمر يستوجب أن تضبط العناصر الّتي توصلنا إلى التّنبّؤ بمدلول العنصر المعجميّ المشترك أو بمداليله في سياق مّا، وهو أمر يستدعي استقصاء مختلف السّياقات الّتي تقبل ذلك العنصر المعجميّ بما تشتمل عليه من أدوات نحويّة وبما تقوم عليه من علاقات بين مختلف الوحدات المعجميّة، ثمّ تجريد عدد من البنى التّركيبيّة الّتي تتجاوز الثّبت المعجميّ المجرّد لمختلف المداليل.

وعلى هذا يكون البحث في المشترك - تماما مثل الكثير من المباحث ذات الاتّصال بالدّلالة المعجميّة- محاولة لرصد شبكة العلاقات الّتي تكون بين مختلف المداليل في اللّغة حيث تكوّن نسيجا متداخلا، وهو كذلك محاولة لدرس طبيعة تلك العلاقات نفسها وسعي إلى ضبط القنوات الّتي تنفتح من خلالها المداليل الواحد منها على الآخر، وغاية المبحث كاملا إقامة البنية الّتي تجتمع فيها مختلف المداليل.

(3) يمثّل هذا المبحث الصّرفي ركيزة هامّة في قضيّة الاشتراك وإن أهملته الدّراسات المهتمّة بهذه القضيّة في ما نعلم. ولكنّه خارج عن اهتمامنا في هذا البحث.

مادّة \ ع ي ن في المعجم :

نعتمد في هذا البحث مثال «عين» وهو من أوسع المداخل دلالة لاستقصاء مظاهر الاشتراك وآليّاته.

تقترن في القاموس مادّة [العين] بالمفاهيم التّالية نوردها كما هي، معتمدين «لسان العرب» دون ماحقه من المعاجم إذ اعتمدت عليه في ما يبدو اعتمادا كلّيّا :

√ ع ي ن :

عـــــين :

- عان الرّجل يعينه عينا : أصابه بالعين
- عان لنا، اعتان لنا منزلا مكلئا : ارتاد، الاعتيان : الارتياد
- عان علينا : صار عينا أي رقيبا
- عان، أعان، أعين : حفر فبلغ العيون
- عان الماء، الدّمع : جرى وسال
- عانت البئر : كثر ماؤها

عِين :

- عِين الرّجل، فهو أعين : كان ضخم العين واسعها

عيّن:

- عيّن التّاجر : أخذ بالعينة أو أعطى بها، والعينة : السّلف
- عيّن فلانا : أخبر بمساويه في وجهه
- المعيّن من الجراد : الّذي يسلخ فتراه أبيض وأحمر
- عيّن : كتب العين
- عيّن : خصّص [من بين الجماعة] من عين الشيء نفسِه وذاته
- عيّن اللّؤلؤة : ثقبها
- عيّنت القربة : صببت فيها ماء لتنفتح عيون الخرز فتنسدّ
- ثوب معيّن : في وشيه ترابيع صغار تشبه عيون الوحش

تعيّـــــن :

- تعيّن الابل واعتانها : استشرفها ليعينها
- تعيّن عليه الشيء : لزمه بعينه
- تعيّنت الشّيء : أبصرته
- التّعيّن : أن يكون في الجلد دوائر رقيقة

عاين :

- عاين : أبصر

عيْن :

- على عيني قصدت زيدا، يريدون الإشفاق
- العين : أن تصيب الإنسان بعين، عان الرّجل يعينه عينا. فهو عائن والمصاب معين.
- العين والمعاينة : النّظر \ رأيت فلانا عيانا أي مواجهة
- العيّن : عظم سواد العين وسعتها
- عيون البقر : ضرب من العنب بالشّام ومنهم من لم يخصّ بالشّام ولا بغيره، على التّشبيه بعيون البقر من الحيوان.
- عين الرّجل : منظره \ شاهده
- العين : الّذي ينظر للقوم (يذكّر ويؤنّث) وكأنّ نقله من الجزء إلى الكلّ هو الّذي حملهم على تذكيره \ الرّقيب
- فلان عين الجيش بمعنى رئيسه
- بعثنا عينا أي طليعة يعتاننا ويأتينا بالخبر\ الرّائد
- العين : الدّيدبان والجاسوس
- أعيان القوم أشرافهم وأفاضلهم على المثل بشرف العين الحاسّة
- العين عين الماء، ينبوع الماء، عان وأعان وأعيّن : حفر حتّى بلغ العيون
- عين القناة : مصبّ مائها
- العيْن والعِيّن : الجديد (طائيّة)، قربة عِيّن : جديدة (طائيّة)
- عين القبلة : حقيقتها

- العين : اسم لما عن يمين قبلة أهل العراق،

- مطر العين : المطر من ناحية القبلة (عن ثعلب)

- العين : مطر أيّام لا يلع، وقيل هو المطر يدوم خمسة أيّام أو ستّة أو أكثر لا يقلع.

- العين : النّاحية

- العين : عين الرّكبة، نقرة في مقدّمها ولكلّ ركبة عينان

- العين : عين الشّمس وعين الشّمس شعاعها الّذي لا تثبت عليه العين

- العين : وقيل العين الشّمس نفسها، طلعت العين وغابت العين (حكاه اللّحياني)

- العين : المال العتيد الحاضر النّاص

- العين : النّقد، يقال اشتريت العبد بالدّين أو بالعين.

- العين : الدّينار

- العين : الذّهب عامّة

- العين في الميزان : الميل، هو أن ترجح إحدى كفّتيه على الأخرى\ ميل في لسان الميزان، هذا دينار عين : إذا كان ميّالا أرجح بمقدار ما تميل به لسان الميزان.

- العين : حقيقة الشّيء \ نفسه وحاضره وشاهده

- عين كلّ شيء : خياره والجمع أعيان \ اعتان الشيء : زخذ خياره

- ما بها عيْن \ عيّن : ما بها أحد

- العيّن : أهل الدّار

- الأعيان : الإخوة يكونون لأب وأمّ ولهم إخوة لعلاّت (مأخوذ من عين الشّيء وهو النّفيس)

- عين القوس : الّتي يقع فيها البندق

- العين والعينة : الرّبا وعيّن التّاجر : أخذ بالعينة أو أعطى بها\ العينة اشتقاقها من العين وهو النّقد الحاضر ويحصل له من فوره

- صنع ذلك على عين وعلى عينين أي عمدا

- قبل كلّ عائنة وعين : قبل كلّ شيء
- العين : طائر أصفر البطن أخضر الظّهر بعظم القمْريّ
- بلد قليل العين أي قليل النّاس

1 - حدوث الاشتراك : الآنيّة والزّمانيّة

يمثّل المشترك، كما أسلفنا، ظاهرة حادثة في النّظام اللّغويّ، والحدوث هنا يؤخذ في معنيين، حدوث في التّصوّر يتّصل بمحور الآنيّة وحدوث في الزّمان يتّصل بمحور الزّمانيّة :

حيث نتصوّر أنّ الاشتراك ظاهرة «سرطانيّة» في حياة اللّغات يختلّ بحدوثها التّوازن في اقتران الدّالّ الواحد بمدلوله الواحد، وهي الصّورة المثلى الّتي لا تكاد توجد في لغة طبيعيّة. ولعلّ أصفى مظاهر هذا الاقتران الأحاديّ يكون في الخطاب العلميّ الدّقيق. فاللّغة في أصلها وضعت للدّلالة على الأشياء دلالة لا تحتمل تعدّدا ولا تداخلا في اقتران الدّالّ بالمدلول لكنّ الزّمن من خلال الاستعمال بتعدّد الأحقاب والمستعملين أفرادا وجماعات (قبائل وعشائر وشعوبا) متفرّقة منبثقة عن أصل عرقيّ واحد يجعل الدّالّ الواحد مقترنا بعدد من المداليل بينها اتّصال وقرابة تكوّن جسورا ينتشر بها الاقتران انتشارا دائريّا تماما كما تنتشر بقعة الزّيت على القماش أو غيره متوسّلة بما بين المواطن المتجاورة من نسيج أو ألياف. ويتمّ هذا الاتّساع في الدّلالة على مراحل توافق كلّ واحدة منها حالا لغويّة محدّدة إذا أخذنا اللّغة الواحدة مجملة في فترة زمانيّة واحدة، وهذه تتضمّن أحوالا جزئيّة أو محليّة إذا أخذنا اللّغة في حال انقسامها إلى لهجات متعدّدة تمثّل مجتمعة اللّغة الجامعة. ويصعب إثبات هذه الأحوال المختلفة خلال الزّمان والمكان لغياب الوثائق بأنواعها. وبظهور حركة التّوثيق وهي في ما يهمّنا تأليف المعاجم، تصادف حالا لغويّة قد اجتمعت فيها المداليل كلّها اجتماعا واحدا فتسجّلها تسجيلا واحدا، وإذا المعجم طبقات تماما مثل الطّبقات الجيولوجيّة الّتي ترسّبت وتراكمت الواحدة فوق الأخرى خلال الأزمنة المتعاقبة، إلاّ أنّ الجيولوجيا بوسائل التّاريخ المعروفة يمكنها أن تثبت إثباتا تقريبيّا عمر الطّبقة الواحدة ومرتبتها في السّلّم التّكوينيّ في حين يعسر ذلك في اللّغة -إن لم نقل يستحيل- إذا

ما تعلّق الأمر بعهود سحيقة في تاريخ اللّغات.

وهذا التّرسّب يكون في المعجم الجماعيّ ولكنّه لا يتّخذ شكل الطّبقات المتمايزة والمتراصفة وإنّما يأخذ شكل الشّبكة المتداخلة الألياف والأنسجة والذّاهبة في جميع الاتّجاهات. فالمعجم بوجهيه المتعاظلين اللّذين تختصرهما العلامة اللّغويّة المفردة : الدّالّ والمدلول، يمثّل نظاما والنّظام علاقات بها تتحدّد قيمة العنصر الواحد، فإذا ما افترضنا أنّ [عين] تدلّ على الجارحة الباصرة أصلا كان لها عدد من العلاقات المحدودة حدّا نسبيًا ترتبط بمقتضاها كلّ ما يدخل في تسمية الأعضاء وتتّسع هذه العلاقات شيئا فشيئا إلى أن تشمل سائر العلامات في المعجم، وإذا تعدّدت مداليل [عين] وفاضت عن مدلول واحد نشأت لها علاقات حادثة تضاف إلى تلك العلاقات الأصليّة فتزداد الشّبكة كثافة قد تصل درجة التّضخّم -إذا ما استعرنا هذا المفهوم من علوم الاقتصاد-.

و من أبرز المظاهر في هذا التّضخّم أنّ الصّورة الصّوتيّة الواحدة [عين] تقترن بعدد كبير من المفاهيم الّتي وضعت لها اللّغة صورا صوتيّة مختلفة فتصبح هذه الصّور المختلفة مرادفة لها. ولا يفيد استعراضها هنا شيئا وهي مثبتة في القاموس(4).

ويمكن اعتماد المثلّث الدّلاليّ في التّمثيل لهذا المظهر :

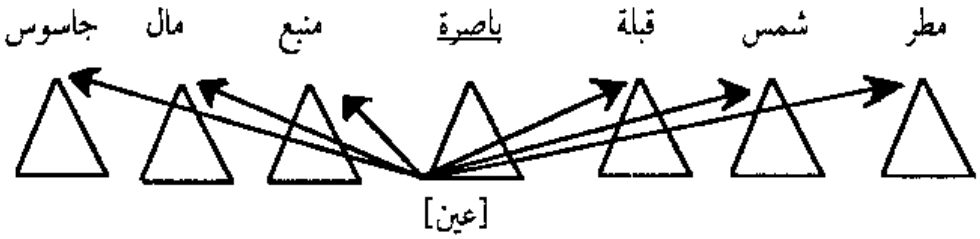

ويستصحب هذا التّرادف دخول هذه المفاهيم المنتمية إلى حقول دلاليّة متباعدة حقلا واحدا بتوسّط الاتّحاد في الصّورة الصّوتيّة [عين] هذه الّتي تمثّل المفتاح الجامع لحقل حادث عن طريق الاشتراك.

وتتعيّن الإشارة في هذا المستوى إلى أنّ التّرادف الحادث بالاشتراك يقصر عن التّرادف الموجود بالأصالة في المعجم فكلمة [عين] دالّة على الشّمس والجاسوس مثلا في

(4) انظر ما أثبتناه قبل هذا حيث تجد أنّ القاموس يثبت عددا من المرادفات على عدد المعاني للمدخل الواحد وهو نوع من التّرجمة تجري في اللّغة الواحدة : [عين] تفيد منبع الماء مثلا فهي مرادفة لـ [منبع] إلخ.

السّياقين التّاليين :

- طلعت العين (شمس)

- أرسل الخليفة عيونه في البلاد (جاسوس)

لا ترادف تمام المرادفة كلمة [شمس] أو [جاسوس] الموضوعتين للدّلالة على [شمس] و [جاسوس] في المعجم. فكلمة [عين] لا تتخلّص من سماتها الدّلاليّة الّتي تصحبها في سياقتها المختلفة وإن اكتسبت بعض السّمات الجديدة من خلال اقتران المفهوم الجديد بها، وهي ترادف في حدود تلك السّمات العلامة الّتي وضعتها اللّغة للدّلالة على ذلك المفهوم. فيكون بين العلامتين [عين] و[شمس] أو [جاسوس] تقاطع جزئيّ إذ يغطّيان نسبة من مفهوم واحد يشتركان فيها، وهو ما تكتسبه [عين] عن طريق الاتّساع الدّلاليّ بتوسّط علاقة هي المشابهة تسمية الكلّ بالجزء، وهذا القسم يطابق جزءا ممّا يدلّ عليه [شمس] أو [جاسوس]. وماهو خارج عن مجال التّقاطع يعود في جزء منه من جهة [عين] إل سماتها الأساسيّة، وفي جزء آخر إلى ما يتّصل بسمات [شمس] أو جاسوس].

فالجاسوس مثلا يدلّ على مفهومه دلالة كلّيّة بما يتضمّن من تعدّد الحواسّ في اقتناص المعلومات سمعا ومعاينة وغيرها وما يتضمّن أيضا من ذاكرة تحفظ المعلومات وملكة تحليل ترتّبها وتحلّلها، وليس من قبيل الصّدفة أن تسمّى مواطن هذه الحواسّ «جواسّ الإنسان» (بالجيم) في اللّغة.

كما تمكن الإشارة في باب التّرادف إلى ما يحدث من تعديل في بنية المرادفات بدخول عنصر جديد فيها بالاتّساع الدّلاليّ المولّد للاشتراك. فإذا ما دلّت [شمس] و[غزالة](5) على مفهوم إشمس| ودلّت [جاسوس] و [ديدبان] على مفهوم إجاسوس| واقترنت [عين] بواحد من هذين المفهومين انضافت قطعة جديدة إلى شبكة المرادفات ونشأت بمقتضى ذلك علاقات جديدة تتعدّد بمقتضاها مجالات التّقاطع تعدّد العناصر المعجميّة المكوّنة للمجموعة المترادفة. ومنها ما أشرنا إليه في الفقرة السّابقة وإليه ينضاف تقاطع آخر يكون لـ [عين] و[غزالة] في مجال شمس، ويكون لـ[عين] و [ديدبان] في

(5) الغزالة : الشّمس عند ارتفاعها.

مجال جاسوس.

ومن مظاهر القصور في التّرادف الحادث عن طريق الاشتراك عن التّرادف بالأصالة أنّ [عين] مثلا دالّة على الشّمس أو الجاسوس تنحسر سياقات استعمالها مقارنة بسياقات [شمس]\[غزالة] أو بسياقات [جاسوس]\[ديدبان]. ففي مجال علميّ يتعلق بدراسة الفضاء والكواكب لا تُستعمل [عين] للدّلالة على الكوكب ولا [غزالة]، كذلك في مجال التّجسّس لا تُستعمل [عين] ولا ما يشتقّ منها من صيغ في الدّلالة على ماله تعلّق بهذا النّشاط :

-* الغزالة/ العين، كوكب حيّ نشيط يمثّل مركز النّظام الشّمسي!؟

-* تفكّر الدّولة في بعث هيئة لمكافحة العيون / التّعيين !؟

2- الاشتراك : الفوضى والانتظام

لقد أشرنا سالفا إلى أنّ الاشتراك يمثّل ظاهرة يختلّ بها التّوازن في الاقتران الأحاديّ بين الدّالّ والمدلول، ينجرّ عنه تغيّر جزئيّ أو كلّيّ، على درجات في النّظام المعجميّ. فهل يمثّل إذن نوعا من الفوضى(6) chaos؟

والفوضى في العلوم الصّحيحة كالفيزياء في ديناميّة السّوائل مثلا، وعلم الرّصد الجوّي في حركة الأنواء، وعلم الطّبّ في نبضات القلب ونشاط الدّماغ مثلا وغيرها من العلوم، لا تعني تشويشا في النّظام وإنّما هي من طبيعة النّظام، كلّ نظام.

فالقاعدة في كلّ نظام أن يشتغل وفق مبادئ وقوانين تمكّن من التّنبّؤ سلفا بما يكون له من حركة أو نشاط إلاّ أنّه يكون له نشاط من طبيعة أخرى لا تنبئ بها تلك القوانين المسيّرة له بل يعسر تفسيرها في ظاهر الأمر لأنّها معقّدة وتقتضي سلسلة طويلة من العمليّات الحسابيّة تراعي كلّ الإمكانيّات، وهي تخضع للصّدفة من جهة وللحتميّة من جهة أخرى. فالمنطلق يؤدّي إلى حال يكون عليها النّظام في طور مّا وفق مبادئ حتميّة

(6) انظر لمزيد التّفصيل :

Tarnowski, D. & Guillemot, H. & Pilorge, Th.: Le Chaos gouverne la pensée, in : Science et Vie, 914, nov. 1993, 37-66.

Gleick, J., 1987 : Chaos, making a new science, Penguin Books, 352 p.

لكنّ الحال النّهائيّة شيء آخر مغاير تماما لما كان يجب أن يكون. وبين الحالين تتدخّل عناصر جزئيّة تحيد بالجهاز المشتغل شيئا فشيئا عن مساره إلى أن يفلت من تحكّم مبادئه الأصليّة فيه فيحدث مالم يكن منتظرا.

والاشتراك قياسا على هذا هو ظاهرة وليدة الفوضى إذ اللّغة نظام وكلّ نظام يستبطن درجة من الفوضى فهو وليد النّظام اللّغويّ نفسه، وما العوامل الّتي تنسب إليها مختلف الدّراسات ظاهرة الاشتراك إلاّ حوادث جزئية تنفصل الواحدة منها عن الأخرى فتُتناسى الحال الأصليّة ويحيد النّظام عن مجراه ويؤول الأمر إلى الاشتراك.

فإذا ما انطلقنا من حال أصليّة نفترض أنّها الاقتران الأحاديّ بين الدّالّ ومدلوله في العلامة اللّغويّة الواحدة حيث تقترن [عين] بـ |عين| الباصرة دون غيرها، مثّلت مختلف السّياقات الّتي تجري فيها خلال العصور المتتابعة والمجموعات اللّغويّة المختلفة بتوسّط العلاقات المجازيّة المختلفة (الشّبه، الجزئيّة، الجوار إلخ) أسبابا أو حوادث جزئيّة منفصلة ومتباعدة تحيد بذلك الاقتران عن أحاديّته وهو المنتظر بل يُتناسى بسببها تماما وتنتهي به إلى اقتران متعدّد تكون الحصيلة فيه دلالة الصّورة الصّوتيّة الواحدة على العديد من المدلولات أو المفاهيم. وتترسّب هذه المدلولات خلال الزّمن وتسجّل في المعجم فتصبح منه.

لكنّ ذلك لا يربك الانتظام، إنّها الفوضى المنتظمة يعني ذلك أنّها فوضى في ظاهرها تستبطن انتظاما.

2 - 1 الانتظام في المشترك :

ليس من وظيفة القاموس أن يعلّل الظّواهر المعجميّة، فعمله الأساسيّ جمع المعاني كما تتجلّى في الاستعمال، وإن تضمّنت بعض القواميس بعض الإشارات إلى هذه النّاحية في غضون استعراضها للمعاني المتّصلة بـ «عين» مثلما فعل صاحب لسان العرب.

وتنفرد النّظريّة المعجميّة المنطقيّة الدّلاليّة (7) بإقامة فرضيّات في أسرار التّفاعلات الّتي

(7) يندرج هذا النّهج في ما يسمّى بالعلوم المعرفانيّة sciences cognitives وهي تجمع بين اختصاصات عديدة مثل علم النّفس وعلم الأعصاب واللّسانيّات والمنطق والإعلاميّة وتدرس عمل الفكر في الذّهن البشريّ في مختلف مظاهره، انظر على سبيل المثال : Andler, D. (ed) 1992 : Introduction aux sciences cognitives, Gallimard, 509p.

تجري في المعجم الذّهنيّ في مستوى أوّل وفي الذّهن البشريّ صاحب ذلك المعجم في درجة ثانية ولكنّها الأولى في التّصوّر والفعل. وتزداد القضيّة تعقّدا عند تناول التّفاعلات الجارية في المعجم عند التّرجمة من لغة إلى أخرى بما يتّصل بها من قضايا الاختلاف في تقطيع الواقع والتّجربة والمحلاّت الشّاغرة (8).

فالمعجم -من حيث هو جزء من اللّغة- وسيلة الفكر في الإمساك بالوجود فاعل ومنفعل : فاعل بحكم ما يقدّم إلى الفكر من أوعية لفظيّة تعبّر عن الأشياء، تجعله يرى الوجود من خلال الوحدات المعجميّة ومن ورائها اللّغة، وهو في ذات الوقت منفعل بطبيعة ذلك الفكر المولّد له بالأصالة فترتسم فيه حدود رسمها الفكر خارج كلّ وعاء وإذا المعجم صورة من جملة الصّور الّتي يمكن أن تكون للفكر في تشكّله ولعلّها أشملها وأصفاها وأيسرها وألينها ولذلك كانت اللّغة من أبدع ما ابتدع هذا الفكر في جموحه وآخر ما يملك أن يقوده جموحه إلى الثّورة عليه. فالإنسان يوجد في اللّغة الّتي أوجدها وتنعكس هذه فتوجد في الإنسان الّذي أوجدها، وإذا اللّغة موجدة للإنسان نفسه فكرا وثقافة لا نوعا وجنسا. وإذ لا فكاك بين الإثنين كان الإنسان الكائنَ الوحيد النّاطق في الوجود المعلوم.

وليس من قبيل الصّدفة أن تكون العين نموذجا للإشتراك فهي أبرز حاسّة جعلت من الإنسان إنسانا ببعديه الفكري الثّقافيّ الرّمزيّ والحيوانيّ، بل إنّ وجودها أضاف بعدا آخر تتشكّل فيه اللّغة هو الخطّ المكتوب فنابت الباصرة عند الكتابة عن الأذن عند السّماع. ويبدو أنّ مجموعة الألفاظ الّتي تسمّي أهمّ الأعضاء البشريّة كالعين واليد واللّسان والوجه والرّأس هي أكثر الألفاظ عرضة للاشتراك في اللّغات الطّبيعيّة (9).

2 - 2 البنية الدّلاليّة في المشترك : حقل [عين] نموذجا :

ولنأخذ في تصنيف هذه المعاني المختلفة وفق مداخل نصطنعها وسيلة لتبيّن البنية

(8) انظر على سبيل المثال : صالح القرمادي : دراسة في الحقلين الدّلاليّين لكلمتي «عين» العربيّة و الفرنسيّة. أشغال ندوة اللّسانيّات في خدمة اللّغة العربيّة، نوفمبر 1981. مركز الدّراسات والأبحاث الاقتصاديّة والاجتماعيّة، تونس 1983.

(9) انظر : Palmer، 1976، 66.

الدّلاليّة في حقل «عين» :

- مداليل [عين] :

- مدخل بيولوجي:

- الجارحة : الباصرة

- وظيفة الجارحة : النّظر

- مدخل اجتماعي/ ثقافي :

- الهويّة : منظر الرّجل

- منزلة اجتماعيّة : السّيّد، شريف قومه

- قيمة اجتماعيّة : العزّ

- عقيدة اجتماعيّة ثقافيّة : الإصابة بالعين

- الاشراف والمراقبة : الرّقيب، الّذي ينظر للقوم

- الطّليعة : يبعثه القوم رائدا

- مؤسّسيّ

- العسكر

- رئيس الجيش

- طليعة الجيش

- سياسي / عسكري : الجاسوس

- مدخل اقتصادي :

- النّظام القيميّ : النّفيس

- النّظام النّقدي

- مطلق الثّروة : المال

- وحدات ماليّة

- عامّة : الذّهب المضروب

- محدّدة : الدّينار

- معاملات تجاريّة :

- تبادليّة نقديّة : النّقد الحاضر
- تبادليّة قياسيّة : الميل في الميزان
- فائـــــــــض : الرّبا

- مداخل عامّة

- كوكب :
- اسم كوكب : الشّمس
- اسم لما يصدر منه : شعاع الشّمس

- الماء :
- مصدر الماء : ينبوع الماء
- مصبّ الماء : عين القناة : مصبّ مائها
- المطر : مطر أيّام لا ينقطع

- حيوان :
- اسم طائر : أصفر البطن أخضر الظّهر (؟)
- ضرب من العنب : عيون البقر

- شكل دائريّ :
- على الجلد : دوائر رقيقة
- في المصنوعات : عين الإبرة / عين القوس
- في الأعضاء : عين الرّكبة

- مجال الإدراك : الحاضرمن كلّ

- الجوهر :
- عـــين الشّيء : ذات الشيء ونفسه (جوهره)
- طبيعة الصّفاء : الخالص الواضح
- قيمة تفاضليّة : خيار الشيء

- الأشخاص :
- أهل البلد

- الجماعة

- الشّخـــــــــص : ما بالدّار عين أي أحد

- الاتّجاه/ الجهة : - النّاحية

- القبلـــــــة : عن يمين أهل العراق

وإذا ما انطلقنا فرضا من معنى أصليّ في مادّة «عين» هو ما يتّصل بالبصر : العضو المبصر، الابصار والنّظر، واستخلصنا من كلّ ذلك السّمات الدّلاليّة الّتي تكوّنه في جوهره وفي وظيفته، تكون السّمات الأساسيّة سمات نوويّة فيه وهي ما يمثّل جوهره وتكون السّمات المتّصلة بوظيفة الإبصار من حيث هو إدراك للمبصرات، وكون العين «باب النّفس الشّارع» على حدّ عبارة ابن حزم، سمات ثانويّة أو عرضيّة :

السّمات النّوويّة (الجوهر) :

العين

[+ جارحة]

[+ مستدير]

[+ بريق]

[+ بياض فيه سواد/ زرقة / . . .]

السّمات الثّانويّة (العرض) :

[+ إدراك بصريّ]

[+ ترجمة عن باطن الشّخص]

[+ مصدر الدّموع]

وكلّ واحدة من هذه السّمات تمثّل مجالا تتقاطع فيه [عين] الباصرة مع عدد آخر من المفاهيم بعضها حسّيّ وبعضها معنويّ مجرّد، بتوسّط علاقات تعود أساسا إلى العلاقات الّتي تحكم المجاز في الكلام : الشّبه والتّجاور. فإذا تصوّرنا الحقل الّذي ندرسه هنا على هيئة دائرة كبيرة فيها دوائر ثانويّة متقاطعة مثّلت «عين» مركزا تفيض منه المعاني المختلفة المقترنة بها فيضا انتشاريّا ذاهبا في كلّ الاتّجاهات. فإنّ أخذت تلك السّمات واحدة واحدة وجدتها منفذا تخرج منه دلالة [عين] من الباصرة إلى مدلول آخر أو قل إلى

حقل دلاليّ آخر إذ ينجرّ عن اقتران [عين] بمدلول مّا ينتمي إلى حقل دلاليّ مّا اقترانه بمداليل أخرى تنتمي إلى ذلك الحقل. فيكون هذا الخروج على درجات - والأمر افتراض ولكنّه افتراض قويّ - تقترن فيه في بداية الأمر «عين» بمفهوم هو جزء من حقل دلاليّ كامل ثمّ تحدث ظاهرة انتشار قطرة الزّيت فتلتحق بعض المفاهيم المجاورة إن لم تكن جلّها أو كلّها بالمفهوم الأوّل في اقترانه بـ «عين» وفي مايلي بيان ذلك :

[+ جارحة] :

هي السّمة النّوويّة الّتي تجعل [عين] صالحة لتسمية هذا العضو عند جميع الكائنات ذات العين. وهذا لا يمثّل بابا للاشتراك بل هو من مظاهر الاقتصاد في اللّغة عندما تجمع المتفرّق من الذّوات في الاسم الواحد تماما كما تجتمع الذّوات المتعدّدة في الجنس (اسم الجنس).

[+ مستدير] :

تمثّل هذه السّمة مدخلا لعدد من المدلولات المتّفقة في الاستدارة سواء كانت على هيئة فتحة تخترق الجسم أو أشكالا مستديرة على سطحه. وتجتمع في ذلك مسمّيات عديدة بعضها من المصنوعات كالايرة والقوس وبعضها طبيعيّ كمنبع الماء واستدارة الشّمس وبعضها خلقيّ كعين الرّكبة وكالدّوائر الّتي تكون في الجلد، والعنب الّذي يشبه «عيون البقر». ولذلك تجتمع هذه المسمّيات المختلفة في أجناسها في مجال واحد بجامع الاستدارة.

[+ بريق] :

لسمة البريق اتّصال بالابصار وبمفهوم النّور وهو العنصر الأساسيّ الّذي يرتسم على العدسة من العين فيكون الابصار منها، وهذه السّمة تعمل متظافرة مع سمات أخرى لإحداث النّقلة إلى حقل دلاليّ آخر. فالبريق متّصل بالشّمس من حيث هي مصدر النّور المحدث للضّوء ولذلك اقترنت [عين] بالشّمس وبشعاعها.

وبتظافر البريق وسمة الاستدارة تقترن [عين] بحقل دلاليّ آخر هو حقل المال ويجمع عناصر مترابطة هي الذّهب المضروب والدّينار، وإذ يمثّل المال نظاما كاملا يقوم على التّبادل والقيمة التّبادليّة وطرق هذا التّبادل، استدعى هذا المفهوم ما يتّصل به من المعاني كالنّقد الحاضر والنّفيس والرّبا والميل في الميزان. ولعلّ هذا الحقل يمثّل أحسن مجال تبرز

فيه ما أشرنا إليه بظاهرة قطرة الزّيت. وليس من المفروض أن يتحدّد المدلول الأوّل، في المعنى الزّماني، الّذي يقترن بـ «عين» فقد يكون الدّينار أو الذّهب أو المال. فتحديد ذلك يبقى مستحيلا في غياب وثائق تشهد باستعمال «عين» في واحد من تلك المعاني في عصر محدّد ولكنّ المهمّ هو أن يقترن واحد منها أوّلا ثمّ يتبعه سائرها :

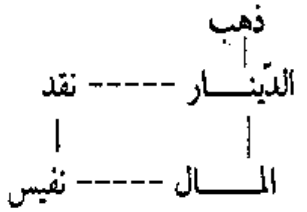

ويتضافر البريق مع سمة ثانويّة هي كون العين الباصرة مصدرا للدّموع -والدّمع ماء- اقترنت [عين] بحقل دلاليّ آخر هو حقل الماء وما يتّصل به. فالماء الجاري من فتحة في الأرض ذات شكل دائريّ في العادة يشبه تماما صدور الدّمع من العين ولذلك سمّي منبع الماء عينا. وهو إذ ينزل من السّماء نزول الدّمع من العين سمّى المطر عينا مع تخصيصه بالدّوام. وإذ ينزل المطر من السّحاب سمّى السّحاب عينا ويتخصّص السّحاب بكونه من القبلة في اتّصال مفهوم الاتّجاه بالنّظر الّذي يكون من العين ولنا عودة إلى هذا.

[+ إدراك بصري]

يمثّل الإبصار الوظيفة الأساسيّة الّتي جعلتها الطّبيعة للعين. وتقترن بهذه السّمة معان عديدة منها حضور الجسم في مجال الإدراك البصريّ فكان أن اتّسعت دلالة العين من الجارحة إلى معنى الحضور مطلقا في الحاضر من كلّ شيء وحضور المال وحضور الذّات مطلقا في دلالتها على الشّخص ومنه استعمالها لتوكيد الذّات، وإذ يكون الشّخص حاضرا من حيث هو جوهر اقترن هذا الحضور بالصّفاء أو الخالص من كلّ شيء.

وبتضافر وظيفة الإبصار ومعنى الشّخص مطلقا تخرج [عين] وهي الجزء من الشّخص للدّلالة على الشّخص كاملا حيث تكون العين فيه أهمّ عنصر يحدّد وظيفته الاجتماعيّة أو العسكريّة وهي تلقّي المعلومات بواسطة النّظر أساسا فتطلق لذلك على الرّقيب والجاسوس وعلى الحارس وعلى الرّائد وعلى القائد.

وبتضافر وظيفة الإبصار مع معنى الرّقابة الحسيّة والمعنويّة هذه الّتي تترجم إلى رعاية وإشراف يكونان بالظّهور وبالعقل الرّاجح وبالعلوّ في المنزلة الاجتماعيّة اقتحمت [عين]

حقلا دلاليّا آخر مجاله العزّ والسّيادة والشّرف والرّئاسة بما فيها من رفعة وتميّز.

ولأنّ العين لا تدرك إلاّ ما كان مواجها لها اقترنت بمفهوم الاتّجاه متّصلا باتّجاه النّظر الّذي يذهب بعيدا من موقع الجسم، وأفادت النّاحية واتّجاه القبلة مقترنا بالمطر كما رأينا.

نتبيّن من خلال ما سبق أن [عين] تمثّل بما لها من معان متعدّدة حقلا منتظما يقبل القسمة إلى حقول صغرى. فكلمة [عين] لا تّساعها هذا لا تكاد تفيد شيئا خارج السّياق. وكلّ ما رأيناه من المعاني استعرضناه استعراضا زمانيّا أي خلال أطوار مفترضة لا يمكن تأريخها. وهذه المعاني المختلفة مسجّلة في المعجم ولذلك تكون موجودة وجودا واحدا إن تناولنا الأمر من زاوية زمانيّة. فهي كلّها موجودة فيها وجودا بالقوّة متساوية تمام التّساوي وإن لم يكن بعضها مستعملا في وقتنا الحاضر. ويرشّح السّياق بما ينشأ فيه من علاقات توزيعيّة وتبادليّة واحدا من تلك المعاني فيكون موجودا وجودا فعليّا وتنزاح سائرها. وينقسم في ضوء هذه الثّنائيّة مدلول [عين] إلى مداليل بالقوّة تتساوى فيه كما أسلفنا جميع المعاني المقترنة بهذه العلامة ومداليل بالفعل تتحدّد بالسّياق بل إنّ هذا التعدّد لا يبلغ منتهاه فيكون السّياق مجالا لحركة انتقاء تنشد الدّلالة الأحاديّة دون أن تبلغها :

- أصابتنا عين : أصابنا مطردام أيّاما، فتكون عين مرادفة لكلمة مطر في هذا السّياق.

- لا أطلب أثرا بعد عين : حيث ترادف عين كلمة مشاهدة أو معاينة في جوار «أثر».

-«. . . اجتاز ببعض المفاوز فظهر له موضع آثار كنز، فجعل يحفر ويطلب فوقع على شيء من عين وورق (10)» : حيث ترادف عين «ذهب» في جوار كلمات من قبيل «كنز» وورق (الفضّة).

- أرسل الحاكم فلانا عينا له في البلاد : حيث ترادف عين كلمة رقيب أو جاسوس في سياق يشتمل على «حاكم» و«بلاد».

فالاستعمال - كما يقرّر ذلك قوستاف قيّوم (11) - يمسك بالمعنى في نقطة مّا بين

---

(10) ابن المقفّع : كليلة ودمنة (باب عرض الكتاب).

(11) انظر : Guillaume, 1973 و Camoun. 1992, p. 169-244

قطبي العموم من جهة والخصوص من جهة ثانية، فيمكن تصوّر مداليل [عينّ] في شكل استرسال متماسك الأجزاء متّصلها، يكون ذلك في المعجم، وعلى هذا الاسترسال تحدث مقاطع عديدة ويتحدّد المعنى وفق موضع القطع من ذلك الاسترسال.

ويمكن تلخيص ما سبق تحليله في جدول ذي مدخلين : السّمات الدّلاليّة المكوّنة لمفهوم [عين] من جهة ومختلف المفاهيم التي تدلّ عليها الصّورة الصّوتيّة [عين]، حيث تشير علامة الايجاب (+) إلى توفّر السّمة المعنيّة وتشير علامة السّلب (-) إلى غيابها وهو ما ستوسّل به لبيان ما أسميناه بمراتب الاتّساع في الدّلالة.

الجدول (1)

	سمات أساسيّة			سمات ثانويّة				
	استدارة	بريق	بياض/ سواد	إدراك حاضر	إبصار	اتّجاه	عزّة	دمع
الجارحة	+	+	+	+	+	+	+	+
الشّمس	+	+	-	+	+	-	-	-
شعاع الشّمس	-	+	-	+	+	-	-	-
الإصابة بالعين	-	-	-	+	+	+	-	-
العمد / القصد	-	-	-	-	-	+	-	-
الإشفاق	-	-	-	-	-	-	+	-
إنسان / شخص	-	-	-	+	+	-	-	-
النّظر	-	-	-	+	+	+	-	-
منظر الرّجل	-	-	-	+	+	+	-	-
أهل البلد/ جمع	-	-	-	-	-	-	-	-
النّفيس	-	-	-	-	-	-	+	-
الجديد	-	-	-	-	-	-	+	-
العزّ	-	-	-	-	-	-	+	-

خيار الشي	-	-	-	-	-	-	-	+	-
السّيّد\ الشّريف	-	-	-	-	-	-	-	+	-
رئيس الجيش	-	-	-	-	-	-	-	+	-
الجاسوس	-	-	-	+	+	-	-	-	-
الطّليعة \ رائد	-	-	-	-	-	+	+	-	-
منبع الماء	+	+	-	-	-	-	-	-	+
مصبّ الماء	+	+	-	-	-	-	-	-	+
مطر لا ينقطع	-	-	-	-	-	-	-	-	+
السّحاب	-	-	-	-	-	-	-	-	+
دوائر على الجلد	+	-	-	-	-	-	-	-	-
ثقب الرّكبة	+	-	-	-	-	-	-	-	-
عين الابرة	+	-	-	-	-	-	-	-	-
عين القوس	+	-	-	-	-	-	-	-	-
الرّبا	-	-	-	-	-	-	-	-	-
المال	-	+\-	-	-	-	-	-	+	-
الدّينار	+	+	-	-	-	-	-	+	-
الذّهب	-	+	-	-	-	-	-	+	-
النّقد الحاضر	+\-	+	-	-	+	-	-	+	-
الميل في الميزان	-	-	-	-	-	-	-	-	-
الخالص الواضح	-	-	-	-	-	-	-	-	+
ذات الشّيء	-	-	-	-	-	-	-	-	-
النّاحية	-	-	-	-	-	-	+	-	-
القبلة	-	-	-	-	-	-	+	-	-
الشّاهد \ الدّليل	-	-	-	+	+	-	-	-	-
طائر أصفر\أخضر	-	-	+	-	-	-	-	-	-
عنب (عيون البقر)	+	+\-	-	-	-	-	-	-	-

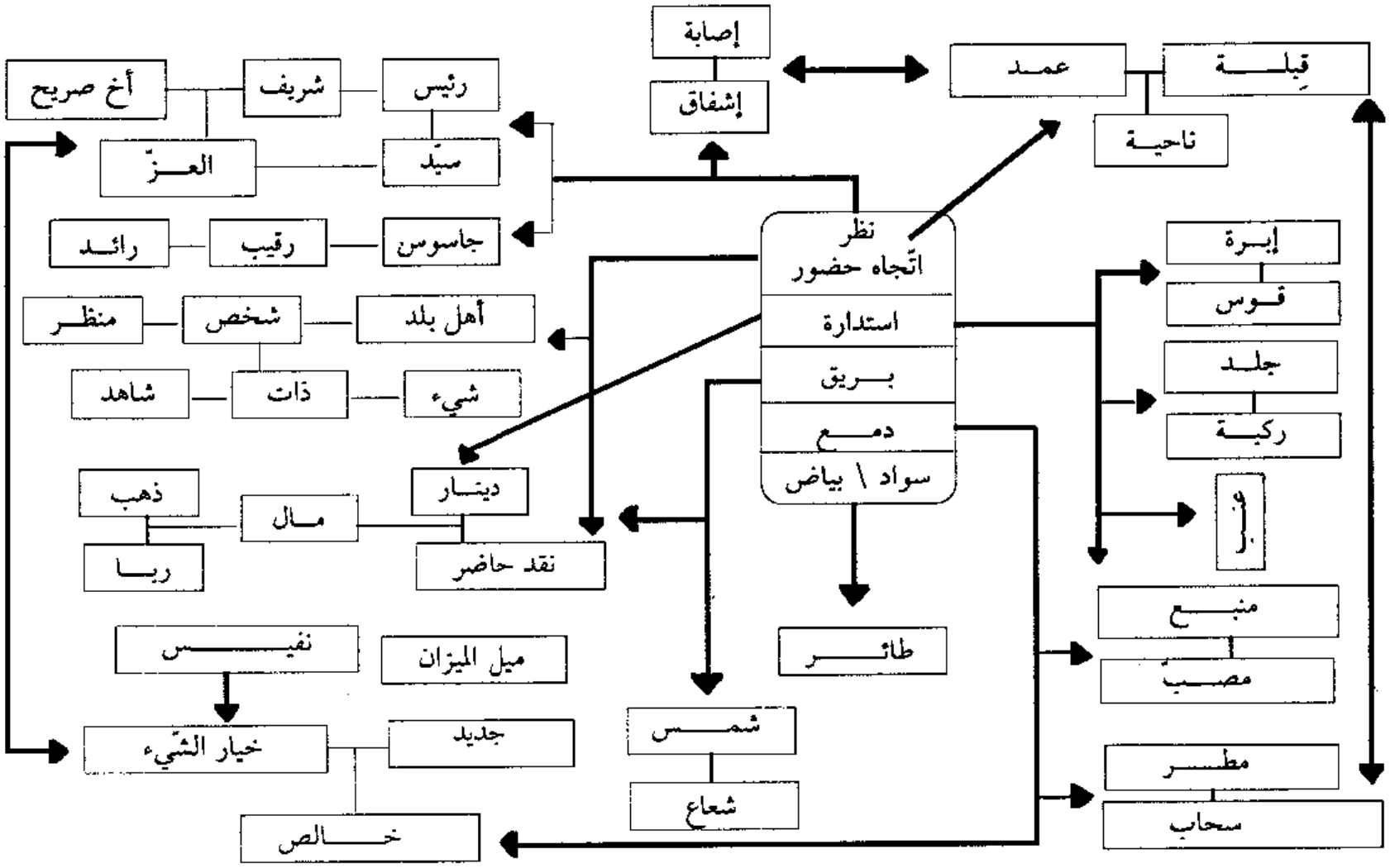

2 - البنية الدلاليّة في حقل «العين»

وباعتماد ما جاء في الجدول (1) يمكن أن نمثّل لحقل [عين) كما يلي : (أنظر ص 189) .

3 - مراتب الاتّساع في الدّلالة :

يقتضي النّظر في مراتب الاتّساع في الدّلالة الانطلاق من الجدول (1) واعتماد نسبة كلّ سمة من السّمات المكوّنة لمفهوم إعين| في كونها سمة تخرج بها [عين] من معناها الأوّل إلى معنى آخر، كما يقتضي النّظر في نسب التّقاطع بين كلّ مفهوم من المفاهيم المتعلّقة بـ[عين] من جهة والمفهوم الأوّل إعين| الجارحة من جهة ثانية.

3 - 1 السمّات الدّلاليّة :

يبلغ عدد المفاهيم الّتي يشتمل عليها حقل «عين» تسعة وثلاثين (39)(12) والسّمات الثّماني (8) تختلف في نسبة التّقاطع نوردها حسب التّرتيب :

- العزّة	11	٪ 28,20
- الاستدارة	10	٪ 25,64
- البريق	9	٪ 23,07
- الإدراك الحاضر	9	٪ 23,07
- الابصار	9	٪ 23,07
- الاتّجاه	7	٪ 17,94
- الدّمع	5	٪ 12,82
- السّواد في البياض	1	٪ 2,56

فسمة «العزّة» كما يظهر هي أكثر السّمات تفاعلا إذ تمثّل الجامع بين أكبر عدد من المفاهيم في حقل «عين» وإن كانت لا تدخل في السّمات الذّاتيّة لمفهوم إعين الجارحة| وإنّما هي سمة ثقافيّة اجتماعيّة ذات صلة بالمعنى الخافّ ارتبطت بالعين لمنزلتها في حياة الكائن من الإنسان خاصّة والحيوان عموما، وهي في حقل «عين» ترتبط بالمفاهيم ذات المنزلة الرّفيعة في المنظومة الثّقافيّة والاجتماعيّة العربيّة (الرّئيس، العزيز، الشّريف، السّيّد،

(12) قد يبدو هذا العدد احتباطيّا، وفي لسان العرب من المعاني ما يفوق ذلك وقد اختصرنا ما أمكن اختصاره.

الأخ الصّريح، وكلّ ما يتعلّق بالمال). وهي سمة ثانويّة في اتّساع الدّلالة رغم تواترها إذ هي تابعة لاتّساع يتوسّل بسمة الابصار مأخوذا في معناه المجازيّ بمعنى السّهر والرّعاية كما يأتي بيانه بعد هذا.

وتليها مباشرة سمة الاستدارة وهي سمة بيولوجيّة أو خلقيّة، تمثّل في رأينا السّمة الأساسيّة الفاعلة في اتّساع دلالة [عين] إذ هي أكثر السّمات تواترا أي اشتراكا بين مختلف المفاهيم في حقل «عين». ويثبت هذا الأمر كون الشّبه أوسع العلاقات في اتّساع الدّلالة.

ثمّ تتساوى ثلاث سمات للعين واحدة تمثّل الوظيفة البيولوجيّة الأساسيّة للجارحة (الابصار) فتطلق على من وظيفته الاجتماعيّة تقتضي منه اعتماد البصر دون غيره كالجاسوس والرّقيب والرّائد ثمّ تأخذ هذه الوظيفة بعدا تجريديّا يتمثّل في الرّعاية والإشراف فتطلق على السيّد والشّريف وغيرهما. وثانيتها ترتبط بطبيعة تلك الوظيفة من حيث حضور موضوع الابصار، فتطلق على كلّ حاضر في مجال الإدراك البصريّ فتدلّ على الشّخص بل على كلّ موجود حاضر وثالثتها متّصلة بالنّور شرط الابصار (البريق) فتطلق على مصدر ذلك البريق بالأصالة كالشّمس أو الانعكاس كالدّينار والذّهب وغيره. بل تتظافر ثلاثتها لتكوّن تقاطعا واحدا من ثلاث طبقات فالدّينار مثلا مبصر حاضر برّاق ولذلك سمّي عينا. فثلاثتها متلازمة وليس من قبيل الصّدفة أن تتساوى في التّواتر.

ويستلزم الابصار اتّجاها يذهب إليه لذلك ورد في المرتبة الرّابعة حيث يكون له بعد حسّيّ يفيد توجيه الباصرة إلى نقطة مّا هي القبلة أو النّاحية كما يكون له بعد نفسيّ سلوكيّ فيفيد العمد والقصد وهو اتّجاه ولكن في النّيّة والعزم.

أمّا كون الجارحة مصدر الدّمع فليس من السّمات الأساسيّة لذلك تأخّر في التّواتر حيث يأخذ بعدا فيزيائيّا فيُطلق على الماء من حيث هو جارٍ من منبع أو إلى مصبّ ومن حيث هو مطر وسحاب وبعدا آخر فيزيائيّا اجتماعيّا فيطلق على الخالص الصّافي من كلّ شيء ودمع العين كما هو معلوم من أصفى ما يكون.

أمّا سمة البياض الّذي يتوسّطه سواد (أو زرقة حسب الأجناس) فليست فاعلة في اتّساع الدّلالة وورودها مرّة واحدة يدلّ على ذلك.

3 - 2 المفاهيم :

والمعنيّ بالمفاهيم هنا تلك الّتي تتعلّق بالصّورة الصّوتيّة [عين] في سياقاتها المختلفة، ومدخل النّظر فيها نسبة الاتّصال بينها وبين [عين] من جهة ما يتوفّر بينهما من تقاطع في السّمات عن طريق الشّبه أو تسمية الكلّ بالجزء أو تسمية الأثر بالآلة المحدثة له إلخ . . . ، ويبين النّظر في الجدول (1) عن ذلك :

فمن المفاهيم ما له اتّصال بـ[عين] من جهات أربع فتتوفّر فيه أربع من السّمات المكوّنة لـ[عين]، وهذه تمثّل أقوى درجات الاتّصال في الجدول كاملا في حين تتوزّع درجات الأتصال في سائرها بين ثلاثة وإثنين وواحد أمّا بعضها فلا صلة له بـ [عين] إذ لا تتوفّر فيه أيّ سمة من سماتها. وهذا الأمر مثير لعدد من الأسئلة أساسها ما الصّلة بين هذه المفاهيم ومفهوم |عين| ؟

ولعلّ أحسن مدخل لتناول هذه القضيّة توزيعها على الحقول الدّلاليّة الفرعيّة المكوّنة لحقل «عين» الكبير (انظر البنية الدّلاليّة لتبيّن ذلك). ونتناول في مايلي بعض الحقول الفرعيّة لتبيّن مراتب الاتّساع دون استقصاء لها جميعا :

- الحقل أ : الشّمس وشعاعها.

ترتبط |شمس| بـ |عين| بالاشتراك في أربع سمات : الاستدارة، البريق، الإدراك الحاضر، الايصار، في حين ترتبط |شعاع| بـ |عين| بالاشتراك في ثلاث سمات فقط، وهي الأربع المذكورة قبل هذا ما عدا الاستدارة. ويمكن من خلال هذا التّقرير أن نستخلص أنّ |شمس| تمثّل درجة أولى في اتّساع دلالة [عين] حيث يتّصل هذا المفهوم بـ [عين] أوّل الأمر ثمّ يستتبع هذا الاقتران لحاق |شعاع| وهو من مستلزمات |شمس| بـ |عين|. وهذا وجه من وجوه التّرتّب في الاتّساع :

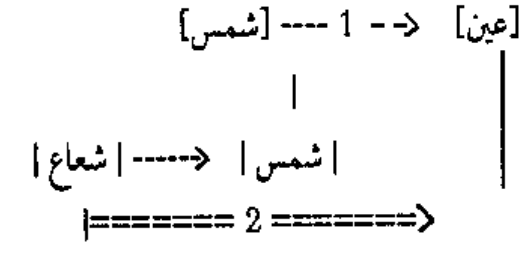

الحقل ب :(دينار، ذهب، نقد حاضر، ميل في الميزان، نفيس، ربا، مال)

يتّصل كلّ عنصر من عناصر هذا الحقل بـ| عين | كمايلي :

- النّقد الحاضر : +\- استدارة، بريق، إدراك حاضر، عزّة
- الدّينار : استدارة، بريق، عزّة
- المال : +\- بريق، عزّة
- الذّهب : بريق، عزّة
- الرّبا : 0
- الميل في الميزان : 0
- النّفيس : 0

نتبيّن من خلال ما يتوفّر من سمات |عين| في مختلف المفاهيم المنتمية إلى هذا الحقل أنّها تتفاوت في درجات الاتّصال فأقربها من |عين| هو النّقد الحاضر إذ يتّفقان في أربع من السّمات مع ما يمكن إبداؤه من تحفّظ يتعلّق بتوفّر سمة الاستدارة في مفهوم النّقد كما تشير إلى ذلك علامة +\- في الجدول، يليه مفهوم | الدّينار| ويتّصل بمفهوم |عين| بتوفّر ثلاث سمات تجمعه بها جمعا ثابتا لا يحتمل تحفّظا. ثمّ يقترن مفهوم |الذّهب| بمفهوم |عين| بتوسّط سمتين. فيكون على هذا اتّصال ثابت ووثيق بين |عين| من جهة وهذا الثّالوث الأساسيّ في هذا الحقل من جهة ثانية.

أمّا المفاهيم الثّلاثة المتبقّية (الرّبا، الميل في الميزان، النّفيس) فلا صلة لها بمفهوم |عين| يعني لا يوجد جامع لها به من خلال الاتّفاق في سمة من السّمات، فما مدخلها إذن ؟

إذا اعتبرنا أنّ الحقل الدّلاليّ كلّ مرتّب على طبقات من العناصر بعضها رئيسيّ أساسيّ وبعضها ثانويّ كان الدّينار والذّهب والنّقد الحاضر أركانا أساسيّة في هذا الحقل فالذّهب معدن نفيس هو أساس العملة والقيمة التّبادليّة فيها ومثّل الدّينار وحدة نقديّة يقوم بها التّبادل ومثّل النّقد الحاضر مفهوما جامعا للوحدات النّقديّة ولعمليّة التّبادل نفسها :

- نقد : كلّ ما يمثّل وحدة ماليّة
- حاضر : حضور عند التّبادل

والتّبادل بيع وشراء وإقراض واقتراض وفي الحالين تحدث الفائدة الّتي تزداد بها الثّروة وهو أساس تنمية المال وركيزة الدّورة الماليّة الاقتصاديّة. وفي هذا المستوى يكون الرّبا

والميل في الميزان من حيث همـا مظهران من مظاهر السّلوك التّبادليّ ويكون مفـهوم النّفيس من حيث هو قيمة تتّصل بما يندر ويرتفع ثمنه كثيرا. وهي الطّبقة الثّانية في هذا الحقل.

وما مـن شكّ في أنّ اتّساع دلالة [عين] كـان أوّلا ليشـمل الطّبقـة الأولى في هذا الحقل بجامع الاشتراك في سمة أو أكثر، فكان أن شمل الاشتراك مفاهيم |دينار| و |ذهب| و |نقد حـاضر| ثمّ ينجـرّ عن هذا الاتّساع من الدّرجـة الأولى اتّساع آخر يـكون من درجة ثانية وبالاستتباع دون توفّر اشـتراك في السّمات تلتحـق بمقتضاه العناصـر الثّانويّة في الحقل الدّلاليّ الّذي تنتـمي إليـه تلك المفـاهيم الأولى فـتـدخل |ربا| و |ميل في الميـزان| و|نفـيس| وغيرها إن وجدت حقل |عين|.

|عين| حقـــل «المال»

<-- 1 --- طبقة أولى (المفاهيم الأساسيّة)

| ذهب |

| دينار |

| نقد حاضر |

| <-- احتواء --- طبقة ثانية (مفاهيم ثانويّة)

|ربا|

|ميل في الميزان |

|نفيس|

. . .

| ================== 2 ==========>

فيكون على هذا الاتّساع في الدّلالة على مراتب :

- مرتبة أولى : يحدث الاتّسـاع بتوفّر وسائط هي علاقات تمثّل جسـور الاتّساع كالشّبه وغيره، يكون فيها التحاق العناصر الأسـاسيّة من حقل دلاليّ مّا بمفهوم آخر من حقل آخر المركز فيه هو مفهوم اللّفظ موضوع الاشتراك (عين في مثالنا).

- مرتبة ثانـية : يحدث فيهـا اتّساع من درجة ثانية يسـتدعي فيه الاتّسـاع الأوّل التحاقَ

مفـاهيم ثانويّة من الحقل الدّلاليّ المعنيّ (المال هنا) بالعناصـر الأساسيّة منهـا، تلك الّتي سبق أن التحقت بالحقل الأوّل (عين الباصرة).

ومن مظاهر التّراتب في الاتّساع ما تُبين عنه بنية «عين» الدّلاليّة حيث تتّسع الدّلالة على حقـول ثلاثة مثلا بينها اتّصال أساسه التّدرّج من الحسّيّ إلى المجـرّد. فسمة |+ دمع| مثلا تمثّل جسرا تتّسع به الدّلالة المركزيّة إلى حقلين بينهما صلات :

- حقل الماء : يشمل مجالين اثنين :

- الماء الجاري : منبع الماء ومصبّه (مصبّ القناة)

- الماء هباء : المطر والسّحاب

وفي هذا الحقل تدرّج بين الجسم الفيزيائيّ الواحـد في شكليه السّائل والمنتشر في الهواء في شكل هباءات.

- حقل الاتّجاه : القبلة، النّاحية، العمد والقصد

وترتبط عناصـر هذا الحقل باتّجـاه النّظر من جهة، وهـي ذات صلة أيضا بالمطر مـصدر الماء وهي القبلة (سحاب القبلة)، وهو بين الحسّيّ في ما سبق ذكره (القبلة والنّاحية) وبين المجرّد عندما يتعلّق الأمر بالعزم والقصد وهو اتّجاه ولكنّ من قبيل العقل والنّيّة.

- حقل قيميّ : الخالص من كلّ شيء

ويمثّل درجـة أمضى في الـتّجريد دون أن تفـارق الحسّ فـالماء، دمعـا وجـاريا من منبع ونازلا من السّحاب، خـالص التّكوين لا يخالطه شيء ويتّسع مفهـوم الصّفاء ليطلق على كلّ شيء.

3 - 3 في تضافر السّمات في الاتّساع الدّلاليّ :

يتجلّى تضافر السّمات من خلال بنية «عين» الدّلاليّة في مستويين :

- المستوى النّووي :

نعني بذلك مستـوى الدّلالة المركزيّة حيث يجري الاقتران بين إعين البـاصرة| بحقل أو حقول أخرى كأن تتضافر سمتـان بأن تلتقيا في عنصر مّا من حقل دلاليّ مّا فتقوّيا الاتّصال بين حقلين مختلفين من جهة وبين كلّ واحد منهما بـ| عين الباصرة| من جهة ثانية :

فإذا أخذنا |+ مستدير| وجدناها جامعة بين أربعة حقول :

- حقل : الايرة والقوس والركبة ودوائر الجلد
- حقل : العنب
- حقل الماء الجاري : منبع ومصبّ
- حقل المال : الدّينار

وإذا أخذت حقل المال وجدت فيه ثلاث سمات تلتقي كلّ منها بواحد من عناصره أو بعدد منها فيكون اتّصالها بالحقل كاملا :

- سمة الاستدارة : الدّينار
- سمة الحضور : النّقد الحاضر
- سمة البريـــق : الدّينار، النّقد الحاضر، الذّهب
- مستوى الأطراف :

ومن مظاهر التّراتب في الاتّساع ما يكون بين الحقول المختلفة المتّصلة بـ [عين] من وشائج ينفتح بها الواحد على سائر الحقول. فإذا أخذت مثلا عنصر |نفيس| من حقل المال وجدت له صلة بـ |خيار الشّيء| من حقل قيميّ أوسع من المال، ولهذا العنصر الأخير صلة بحقل اجتماعيّ كامل يشمل «الرّئيس والأخ الصّريح والسّيّد والشّريف والعزّ» . وإذا أخذت عنصر |الخالص من كلّ شيء| وجدت له اتّصالا بحقل الماء المشتمل على «المنبع والمصبّ والمطر والسّحاب» وللسّحاب صلة بحقل الاتّجاه في ارتباطه بعنصر «القبلة»، وفي هذا الحقل تجد عنصر «العمد» وله اتّصال بـ«الإصابة بالعين» و«الإشفاق». ويمكن أن تجد كذلك للإشفاق صلة ببعض العناصر في الحقل الاجتماعيّ كـ «الرّئيس والسّيّد والشّريف».

وإذا كلّ الحقول كما ترى مترابطة بينها شبكة كاملة من الاتّصال تخرج من الواحد إلى الآخر مخرجا مّا دون أن ينقطع بك الجسر إلى أن تعود من حيث انطلقت. وإذا الاشتراك ظاهرة طبيعيّة في اشتغال اللّغات تستلزمها طبيعة المفاهيم الّتي يتّصل بعضها ببعض في الذّهن البشريّ. وما العلامة اللّغويّة إلاّ وعاء ليّن متوسّع فضفاض يتابع حركة الفكر محاولا الإمساك به.

ويمكن في الختام أن نجمل مراتب الاتّساع، وهي متدرّجة من المركز إلى الأطراف ويناسب طردا هذا التّدرّج اتّساع في الدّائرة : (انظر الرّسم3)

1 - مرتبة المركز :

يتمّ الانتشار بتوسّط العلاقات بين السّمات المركزيّة المكوّنة للمفهوم الأوّليّ وبين سمات واحد أو أكثر من المفاهيم المنتمية إلى حقل دلاليّ مّا. والعلاقات هنا تقوم أساسا على الشّبه والتّجاور، وهي في اتّجاهها انتشاريّة centrifuge.

2 - مرتبة الوسط :

يتمّ فيها انتشار من درجة ثانية لاحقة على السّابقة بتوسّط علاقة الانتماء إلى حقل واحد. ولذلك يوجد من المفاهيم ما يلتحق بدلالة وحدة معجميّة مّا دون توسّط علاقة من العلاقات الفاعلة في المرتبة المركز. فهذا الانتشار مجاله الحقل الدّلاليّ الواحد.

3 - مرتبة الأطراف أو التّخوم

يتمّ فيها انتشار دائريّ حيث تترابط عناصر منتمية إلى حقول دلاليّة متباعدة، وهي درجة يبلغها الانتشار عند ما يصل درجة التّشبّع saturation. هذا في الحقل الواحد ناشئا في العلامة الواحدة.

ويمكن أن نتصوّر في الاتّساع الدّلاليّ عموما درجة يبلغها الانتشار خلال الأحوال اللّغويّة المختلفة تمثّل أقصى ما يمكن أن يبلغه فتتكوّن شبكة من المداليل تمثّل فسيفساء من المربّعات الدّالّة على المفاهيم المختلفة واحدا واحدا، ثمّ تأخذ بعضها في التّآكل والنّقص تدريجا فيموت بعضها ويظلّ بعضها الآخر حيّا.

ومن أمثلة ذلك أنّ [عين] في العربيّة الفصحى المعاصرة - في أذهان المستعملين العاديّين من غير ذوي الاختصاص - أي في المعجم الذّهنيّ فقدت الكثير من مدلولاتها المسجّلة في المعاجم القديمة، ولا يمكن استحضارها استحضارا فوريّا قائما على الحدس اللّغويّ.

ولكنّ للأمر وجها آخر يتمثّل في الازْدِواجِيّة اللّغويّة diglossie إذ تنقسم

مستويات الاستعمال إلى مستويين كبيرين : الفصحى والعامّية بما فيها من لهجات متعدّدة في الوطن العربيّ. وهذه اللّهجات تحافظ دون شكّ على بعض مدلولات [عين] في القديم، وقد يأخذ الاتّساع فيها مشارب شتّى فتقترن [عين] بمدلول في لهجة مّا قد لا تقترن به في لهجة أخرى. وهو اتّساع لا يقطع صلته بالاتّساع القديم. ويستدعي هذا المظهر دراسة لاستقصاء خصائصه إن وجدت.

ويمكن ان نجمل مراتب الاتساع في الرسم التالي :

(3) مراتب الاتّساع :

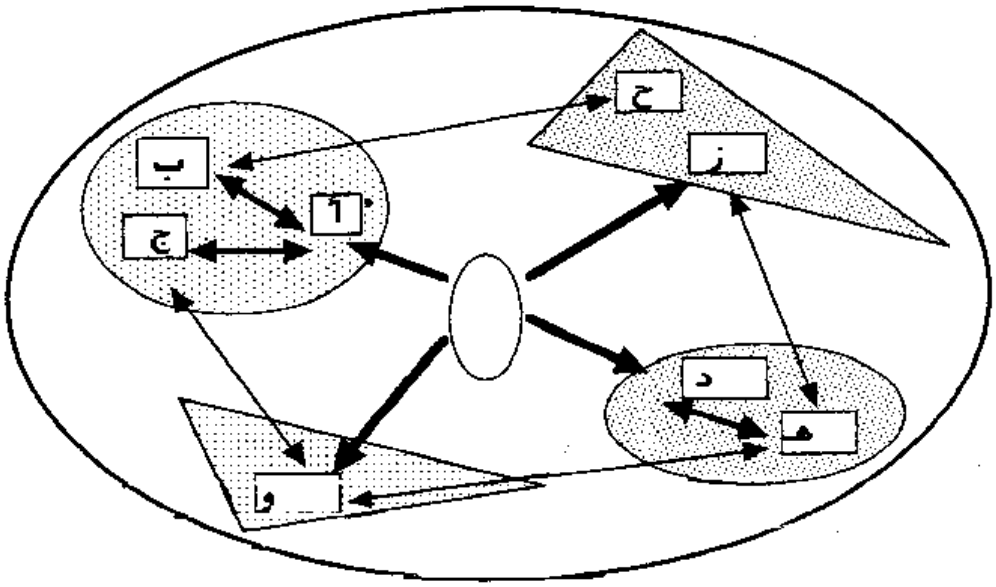

الأزهـــر الزنّـــاد
كليـــة الآداب بمنوبـــة
جامعـــة تونـــس الأولـــى

المـــراجـــع

المراجع العربية :

- ابن أحمد (الخليل) : كتاب العين، تحقيق مهدي المخزومي وإبراهيم السّامرائي دار ومكتبة الهلال، د.ت.
- ابن السّرّاج (أبو بكر محمّد) : رسالة الاشتقاق، تحقيق محمّد علي الدّرويش ومصطفى الحدري، منشورات دار مجلّة الثّقافة، دمشق، 1973.
- ابن فارس (أحمد) : الصّاحبي في فقه اللّغة وسنن العرب في كلامها، تحقيق مصطفى الشّويمي، بيروت 1963.
- ابن المقفّع (عبد الله) : كليلة ودمنة، دار المسيرة، بيروت 1981.
- ابن منظور : لسان العرب.
- الغزالي : معيار العلم في فنّ المنطق، دار الأندلس، بيروت، د. ت.
- مجاهد (عبد الكريم) : الدّلالة اللّغويّة عند العرب، دار الضياء. بيروت 1985.

المراجع الأجنبية :

Baldinger, K., 1977, Semantic Theory, Towards a Modern - Semantics, Basil Blackwell, Oxford, 320 p.

Camoun, A. : Etudes de psychosystématique française et arabe, Faculté des Lettres de la Manouba, Tunis, 274 p.

Chomsky, N. 1975 : Questions de sémantique, taduit de l'anglais par Bernard Cerquiglini, Paris, 235 p.

Fodor, J.D. 1977 : Semantics, Theories of Meaning in Generative Grammar, New York, 225 p.

Gleick, J., 1987 : Chaos, making a new science, Penguin - Books, 352 p.

Guilbert, L., 1975 : La créativité lexicale, Larousse, Paris, 285 p.

Guillaume, G., 1973 : Langage et science du langage, Paris, Québec, 287 p.

Lyons, J., 1977 : Semantics, 2 tomes, Cambridge, 987 p.

Palmer, F.R., 1976 : Semantics, Cambridge, 164 p.

Tarnowski, D. & Guillemot, H. & Pilorge, Th. : Le Chaos gouverne la pensée, Science et Vie, 914, Nov. 1993, 37-55.